# (هداية الله، ودفع ما يتوهم من تناقض آيات القرآن فيها)

---

جوابا لسؤال من دمشق الشام.

جاءني من فضيلة الشيخ توفيق البزرة من علماء دمشق سؤال هذا نصه:-

لم أفهم يا سيدي معنى قوله تعالى (والله لا يهدي القوم الكافرين) والله لا يهدي القوم الظالمين) (والله لا يهدي القوم الفاسقين) فكم نرى من الكافرين من أسلم، وكم نرى من الظالمين من اهتدى، فيا ترى من هداهم وأرشدهم، وقد أخبر الله جل شأنه أنه لا يهديهم، فهل اهتدوا من أنفسهم بدون معونة الله وهدايته، انتهى.

فأجبته بما نصه:-

إن تعبير هذه الآيات باسم الفاعل الذي يدل على الثبوت والاستقرار والدوام بالاستمرار يشعر بالمعنى المقصود من هذه الآيات أي من كانت طبيعته وغريزته تقتضي الجحود والكفر والعناد، ومن كان مزاجه وجبلته تميل إلى الظلم والفسق والفساد فهذا لا يهديه الله تعالى إلى الإيمان والخضوع والإسلام، ولا إلى الطاعة والتوسط والاعتدال بل يبقى منحرفا عن الحق بمقتضى طبيعته، مائلا عن الصواب بمقتضى غريزته وجبلته، وذلك كالأرض الصلدة الصخرية التي لاتنبت أبدا ولو أنصب عليها جوابل الغمام أو غمرها الطوفان. فمثل هؤلاء لا يهتدون أبدا كما قال تعالى في حقهم (ولو أننا أنزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرناهم عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله) أي ما كان من شأنهم، ولا مقتضى استعدادهم أن يؤمنوا إلا أن يشاء الله تغيير طباعهم وتبديل غرائزهم، وتحويل أمزجتهم، وخلقهم خلقا جديدا، وأنى لهم ذلك لأنهم لا ينظرون في آيات الله نظر فهم واستدلال، ولا يبحثون فيما يأتيهم بحث تدقيق وتفكر وإمعان، وإنما ينظرون إليها نظر من قدم عليه قادم في مغازة يريد نصره وإغاثته وإخراجه من ضيق نزل به فظن أنه عدو قاطع طريق يريد مهاجمته ليوقع به ويسلبه ما بيده فينبري لقتاله، فإذا قال له أنا ولي نصير، لا عدو مغير، ظن أنه يخدعه بقوله، وأنه إذا لم يسبق إليه بشل يده وإلا مدها لقتله، فهؤلاء غلاظ الأكباد، قساة القلوب، سيئوا الأخلاق، الذين طبعوا على الشر والتعدي والظلم والجحود والعناد هم الذين لا ينظر الله إليهم، ولا يهديهم وهم المقصودون من هذه الآيات التي ذكرتموها ونحوها كقوله تعالى (إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار) وقوله (إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب) حيث إن هذه الآيات كلها إنما عبرت باسم الفاعل وبصيغة المبالغة اللتين يشعران بتكرار الشيء واستمراره حتى رسخ فيهم وصار صفة لازمة لهم.

أما من كان كافرا فأسلم، وضالا فهتدى، وظالما فعدل، وفاسقا فأطاع، ونحو ذلك فهؤلاء هم اللينة قلوبهم، المعتدلة أمزجتهم، القابلة طباعهم، المستعدة جبلتهم الصالحة تربتهم للخير كالأرض اللينة الصالحة ..... والإنبات فإنها تنبت متى نزل عليها الغمام وتهتدي متى تنسمت رائحة الهداية والإيمان فهؤلاء هم (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم ألوا الألباب) وهم القابلون للإسلام بعد الكفر، وللطاعة بعد المعصية، وللهداية بعد الضلالة.

فكما أن الأرض صنفان، صنف غير قابل للإنبات وهو الصخر الصلد الذي يصح أن يقال عنه (إن الله لا ينبته أبدا) وإن نزل عليه الماء، وصنف قابل للإنبات وهو اللين التربة الذي يصح أن يقال عنه (إن الله ينبته نباتا حسنا) وكذلك الإنسان صنفان، صنف قابل للهداية وهو لين القلب، وطيب النفس فيهديه الله تعالى وصنف غير قابل لهداية وهو قاسي القلب، خبيث النفس، شديد العناد، فهذا لا يهديه الله كما قال تعالى (لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم)، (لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا إلا طريق جهنم خالدين فيها)، (وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا).

ويكفي في بيان ذلك قوله تعالى (يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين) أي المتمرنين على الفسق، المعادين عليه والمتخلفين به، فإن في هذه الآية بيانا وقياسا وميزانا لمن يصلح لهداية القرآن ومن لا يصلح لها.

وتوضيح ذلك أن أفعال الإنسان الاختيارية سواء كانت أفعال خير أم أفعال شر، متى كررها الإنسان كثيرا، وصارت عادة له فإنها تصبح صفات ثابتة، وملكات راسخة في نفسه. فمتى تكرر منه الجحود مثلا أو العناد أو الظلم أو الفسق أو الكذب أو البخل

أو الكبر أو نحو ذلك من سائر صفات الرذيلة، أو تكرر منه الرضوخ للحق والإذعان للحجة والاقتناع بالدليل أو تكرر منه العدل أو الطاعة أو الصدق أو الكرم أو التواضع أو نحو ذلك من سائر الصفات العالية فهذه الأشياء تصبح صفات ثابتة وملكات راسخة في نفسه ومتى قدمت وطال عليها الزمن تنقلب إلى غرائز وطبائع لا يمكن تخلف أثرها، ولا التخلي عنها لأنها غرزت وطبعت في نفسه بتكرار فعله الذي كان باختياره وإرادته.

وبهذا البيان ظهر ظهورا واضحا للعيان.

١. إن الله تعالى لم يجبر أحدا على قبيح أو على حسن بل الإنسان هو الذي يفعل باختياره ما يتلاءم مع طبعه الذي أوجده لنفسه بتكرار عمله الحسن أو القبيح.

٢. إن الله تعالى لم يحاب بين خلقه في هداية قوم منهم وعدم هدايته آخرين بل أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، أي أعطاه استعداده وقواه ثم هداه النجدين أي دله على طريق الخير والشر يسلك منها ما يلائهم استعداده بإرادته واختياره.

٣. إن الآيات التي تفيد أن الهداية لله كقوله تعالى (إنا هديناه السبيل ) وقوله (بل الله يمن عليكم إن هداكم للإيمان) وقوله (قل الله يهدي للحق) وغير ذلك من الآيات الكثيرة التي تسند الهداية لله تعالى هي لا تناقض أصلا ولا تعارض الآيات الأخرى التي تنفي الهداية عنه كقوله تعالى ( إن الله لا يهدي القوم الكافرين)، و(إن الله لا يهدي القوم الظالمين)، (إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب) وغيرها من الآيات لأن الهداية المنسوبة لله إنما هي هداية من هو أهل للهداية ومستعد وقابل لمها، والهداية المنفية عنه هي هداية من ليس أهلا لها ولا مستعدا ولا قابلا لها وذلك بالكيفية والطريقة المعقولة التي بيناها وفصلناها والتي يشير إليها قوله تعالى (فريقا هدى وفريقا حق عليه الضلالة) وأظن أن في هذا البيان كفاية والله الموفق للصواب والسلام عليكم ورحمة الله.

٤. انتهى ما كنت أجبت به الأستاذ الشيخ توفيق البزرة عن هذه الآيات.

# (فلاسفة الصوفية يقولون أن الطائع والعاصي والمهتدي والضال أمام الحق تعالى سواء، والرد عليهم في ذلك)

---

بمناسبة هذا الموضوع أتكلم هنا عما فهمه بعض فلاسفة الصوفية من أن آيات القرآن تفيد أن الطائع والعاصي، والمهتدي والضال، أمام الحق سواء، وذلك أن الله تعالى قد سمى نفسه الهادي والمضل في عدة آيات منها وقوله في سورة إبراهيم (يصل الله من يشاء ويهدي من يشاء) وقوله في الرعد (قل أغن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب) وقوله في الأنعام (من يشاء الله يضله ومن يشاء يجعله على صراط مستقيم) وقوله في النساء (أتريدون أن تهدوا من أضل الله، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) وقوله في الرعد (ومن يضلل الله فما له من هاد) وقوله في الجاثية (وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه) وإلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي وصف الله بها نفسه بأنه المضل والهادي، وحينئذ فالطائع بالنظرة لكونه متحققا بصفة هداية الله له، والعاصي بالنظر لكونه متحققا بصفة إضلال الله له هما سواء أمام الله بالنظر لكون كل منهما قد تحقق فيه ما أراده الله له فالعالم كله مربوط بعضه ببعض بإرادة إلهية وقوة سماوية أوثق رباط كارتباطه بالكهرباء لا تقبل الانفصام. إن الخطأ والصواب، والهدى والضلال لا يقع شيء منه إلا طاعة لتلك القوة الكهربائية والقدرة السماوية فهي التي تبرم وتنقض وتحل وتربط، وتأسو وتجرح لأغراض مستورة قد لا يفهمها الإنسان بإدراكه الضعيف، وإن الحرية الذاتية إنما هي وهم من الأوهام فإن الإنسان حينما يتنفس أو يتحدث أو يحزن أو يفرح، أو يسكن أو يتحرك إنما هو موصول السرائر بالعالم كله مربوط الإرادة حسبما يلهم ويوحى إليه ولذلك فإنه يتأثر بما لا يدري من أحوال الوجود فيسعد ويشقى في سريرة نفسه بلا سبب معروف.

قالوا ومن تأمل قليلا يرى العالم قد قام على أساس الشهوات وهي باب العصيان فآدم قد خرج من الجنة بسبب ما اقترف من الأكل من الشجرة الممنوعة ولكن خروجه من الجنة كان هو الأصل في روعة هذا لا وجود ولو أن آدم لم يعصي ربه لبقيت الأرض بلا سامر ولا أنيس، وظلت بلا حضارة ولا عمران ولو بقي آدم في الجنة لحرم الجهاد في سبيل الفضيلة، وفي سبيل الرزق وعاش غافي العواطف، خامد الإحساس. وكيف يكون فهمنا لعظمة الله إذا حرمنا الشقاء بالعواطف والشهوات والأهواء. وكيف كنا نعيش لو خلت دنيانا من اللهوء والفتون، كيف كانت تطيب الدنيا لو لم نطع الله بالعصيان. كيف يكون العقل لو خلا من التمرد والثورة والاعتساف. إن أقوى الأغاني والأناشيد هي أنفاس الملتاعين من الذين قارعوا فتن الوجود. إن أعاظم الرجال هم الذين نقعوا أرواحهم في بحار الشهوات. إن أقوى العيون هي العيون التي رأت دقائق الخفايا في ألوان الصباحة والجمال. إن أقوى القلوب هي القلوب التي واجهت سرائر الليل. إن أعظم النفوس هي النفوس التي عاقرت كؤوس الغل والحقد والحب والهيام. إن أكبر العقول هي العقول التي اصطرعت في ميادين الشك واليقين.

وهل وجد رجل واحد من العظماء شهد تاريخه بأنه احترم العرف والقوانين والتقاليد. إن الرجل العظيم هو الحوت الذي يسير كما يشاء، ومن سواه من الصغار إنما هم كصغار الأسماك التي تساير التيار لتقع في شباك الصيادين. إن الظلم من أكبر الآثام ولكنه يفتح عيون المظلومين إلى الثورة والجهاد. إن حب الذات إثم ولكنه يخلق فنونا كثيرة من الحضارة والرفاهية والترف. إن التحاسد مذموم وكلنه أصل المباريات والمنافسات وهو السبب الأصيل لإيقاذ عزائم الأبطال. إن البغي إحدى الكبائر ولكنه يدعو الباغين إلى الاعتصام بالقوة والجبروت والحرب أنفع للإنسانية من السلم فبفضل الحرب عرفت وسائل وأساليب هي في ذاتها من عناصر الجمال في الوجود والجسم الإنساني يصور النضال بين الطاعة والعصيان فهو ممثل بجراثيم يبغي بعضها على بعض فإذا وقع الصلح بين تلك الجراثيم كان الموت. والشر ينفع كل النوع فهو الذي يحولنا من أناس عاديين إلى حكماء وينقلنا من مراتع الحملان إلى مرابض الأسود.

وقالوا ماذا غنم الناس من سيادة الشرائع والقوانين. فإن قيل العدل، قلنا إنما هو العدل الأعرج الذي سمح للضعفاء والمهازيل بأن يكونوا من قادة الشعوب. على أنه في أي وقت تحقق العدل في دنيا الناس. إن الضعفاء لهم وسائل يدحرون بها الأقوياء فأسفل مخلوق يستطيع أن يكيد لأشرف مخلوق. يستطيع المخلوق السافل الضعيف أن يزعم التفرد بحسن السيرة ومتانة الأخلاق لأن ضعفه قضى بأن يكون آخر من يهم بالثورة على مأثور الأخلاق. والحكام يعرفون أن نظام الحكم نظام دخيل في الحياة الإنسانية فهم يرضون عن الضعفاء لأنهم لا يعرضونهم للقيل والقال. ويفرون من الأقوياء فرار الأجرب من بطش السليم لأنهم يعرفون أن الأقوياء يدخلونهم في مضايق حبوات القلوب والعقول.

ويفضل هذا العرف السخيف صار من عبارات المدح أن يقال فلان من البيت إلى المسجد ومن المسجد إلى البيت. وبفضل هذا العرف السخيف تقدم الضعفاء وتخلف الأقوياء. وبفضل تقدم الضعفاء وتخلف الأقوياء في الشرق صار الشرقيون من المستعبدين وهل كان للشرق قوة إلى يوم صح لأنبيائه وزعمائه أنيروا لأنفسهم مزايا ليست لسائر الناس.

وهل استطاع النبي محمد (ص) أن يستبيح من الزوجات ما لا يستبيح لأفراد أمته إلا وهو يرى أنه أقوى الرجال. وهل نزل الوحي في بلاد العرب إلا على رجل مشهود له بالقوة في كل شي حتى في النواحي الطبيعية، على أنه ما فضل الشرائع، وما فضل القوانين إن لم تؤيدها القوة والجبروت فالناس حينئذ يخدعون أنفسهم حين يحتمون وهم ضعفاء بسلطان الشرائع والقوانين غاضين النظر عن القوة القاهرة.

هذه هي توجيهات الصوفية لنظريتهم القائلة بأن الطائع والعاصي والمهتدي والضال هما سواء أمام الحق تعالى. قالوا وهذه النظرية تروض الناس على الجذل والابتسام وتشعرهم بأنهم في طاعتهم وفي معاصيهم جنودا أوقياء لرب العزة والجلال وتوفر عليهم قتل أعصابهم بالندم على ما اقترفوا من ذنوب لأن الإغراق في الندم قد يقضي على النفوس بالتهدم والانحلال.

ولعل هذه النظرية هي التي جعلتهم يقولون أن من بلغ العناية القصوى في الولاية سقط عنه الشرائع كلها من الصلاة والصيام والزكاة وحلت له المحرمات كلها منالزنا والخمر وغير ذلك.

وهم مع ذلك يؤمنون بالجنة والنار ولكنهم لا يرون أهل النار في عذاب بل يؤكدون أن أهل الجحيم يتلذذون كما يتلذذ أهل النعيم، لأن الشقاوة والمعصية عندهم كانت غرضا مطلوبا لأنها السر في نهوض الحضارة والعمران وستكون أعظم معضلة يوم يقوم الحساب وبفضلها يسيطر الله ذو الجلال. ويقولون أيضا كما يكون في الدنيا غني وفقير، وعزيز وذليل ومالك ومملوك، وسعادة وشقاء، ونعيم وعذاب، فهكذا يكون ثواب الآخرة وعقابها، ونعيمها وعذابها.

وبالجملة فإن هذه الطائفة من الصوفية يعتقدون أن الواحد منهم متى بلغ حد الكمال، وآتاه اليقين فقد سقطت عنه التكاليف كلها، معتمدين في ذلك على ما فهموا من قوله تعالى (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) وعلى الآيات الأخرى المتقدمة التي فهموا منها أن الطائع والعاصي أمام الحق سواء لأنه هو المضل الهادي حينما أراد وشاء.

## (الرد على هذه الطائفة من الصوفية)

---

لا يخفي على كل متفكر ما يترتب على هذه النظريات والأفهام من الفساد العام واختلاف النظام، لأنها تقضي على الشرائع والقوانين، وتوجب إلغاء المحاكم، وكيف يكون الحال إذا أبيح لكل مخلوق أن يسرق ينهب ويقتل لا رقيب ولا حسيب غير مسئول عن إجرامه.

كيف يكون الحال إذا شعر كل إنسان بأنه مهدد باغتيال ما يملك من المنافع وتعكير ما ينعم به من الأمن والعافية. كيف تصبح الدنيا إذا عاش اللئام والفاسقون والظالمون بلا راع يوم تنهار سلطة الشرائع والقوانين. كيف يرتقي العمران إذا صح في كل ذهن أن لا مجال لبقاء ما نؤسس وما ندخر من أصول المنافع المعاشية والعمرانية، وما هو فضل الإنسان على الحيوان إذا انعدمت محامد الرفق والعطف، ومذاهب الضبط والكبح ومراجع الاحتكام إلى العقل والعدل. إن ذلك لو صح لعادت الدنيا إلى عهدها يوم كان بنو آدم قطعانا ليهيمون حول مساقط الغيث ونابت الأعشاب وانعدمت هذه المراسم الشعرية التي تتمثل في استخدام البخار والكهرباء، وتظهر روعتها في عيش الضعفاء آمنين بجانب الأقوياء.

والحق أن الإنسان استطاع أن يمثل دور خلافته عن الله في الأرض بفضل ما أنشأ من شرائع وقوانين. فهو بفضل السلطة التشريعية والتنفيذية وقف الظالم والمظلوم أمام منصة العدل، واستطاع أن يمكن الضعاف والعزل من أن يبيتوا في منازل ليس فيا قفل ولا رتاج. وبراعة الإنسان تظهر في هذا الجانب فهو قد حول الدنيا إلى دار أمان وليس هذا بالقليل إذا فكرنا في طبيعة بني آدم وكانوا من الحيوان الذي يؤثر الافتراس.

وما استطاع الإنسان أن يكون خليفة لله في الأرض إلا بفضل الشرائع والقوانين وهو بالفعل يحقق أظرف الأخيلة من الأحلام الإنسانية.

فإن القول المأثور أنه سيأتي يوم يعيش الحمل مع الذئب، ويلعب فيه الأطفال بالحيات والثعابين، وقد تحقق شيء من ذلك فإن أصغر الناس الآن يستطيع أن يعادي الوزراء والأمراء والملوك وهو واثق من السلامة ما دام يملك التدليل على أنه في جانب الحق. ولا يستطيع وزير ولا أمير ولا ملك أن يخرج أحدا من بيته إلا إذا أعانه القانون وهذا جانب شعري في حياة الناس الموفقين الذين أنشئوا الشرائع والقوانين وعملوا بها فقضوا على الظلم والبغي والإسراف.

وإنني أرى أن هذه الطائفة من الصوفية الذين يقولون أن المهتدي والضال، والعاصي والطائع أمام الله سواء بزعمهم إن ذلك مأخوذ من القرآن قد أدخلوا أنفسهم تحت قوله تعالى (يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين) فها هم فسقة الصوفية الذين يأثرون شهواتهم قد ضلوا بالقرآن فزعموا أنه يفيد أن الطائع والعاصي سواء، وأن من أتاه اليقين حلت له المحرمات وساغت له جميع الشهوات والأهواء.

نسأل الله تعالى الوقاية والسلام من عاقبة هذه النظريات والآراء.

وبمناسبة هذا البحث أذكر هنا استفتاء كل قد توجه إلينا عن بعض ما يفعله الصوفية وأرباب الطرق وأذكر جوابي عليه لعلاقة السؤال والجواب بهذا المقام وتوضيحهما له.

## (استفتاء عما يفعله الدراويش من الأذكار والطبول ونقر الدفوف والكاسات وغير ذلك من الأعمال الأخرى)

---

جاءني استفتاء عن بعض ما يعمله الصوفية وأرباب الطرق من الشيخ عبد الخالق أحمد على الكواملة من قرية زكريا عن محطة عرطوف ضمن تحرير هذا نصه:-

حضرة العلامة الأستاذ الشيخ عبد الله القيشاوي المحترم.

سلام الله عليكم ورحمة الله وبركاته. وبعد إن صوتكم الداوي الذي ملأ أرجاء المعمورة، وردد صداه أقصى بلاد المسلمين، والذين أزاح الستار وأضاء السبيل، وفقه الكثير بسبب فتاويكم المتتابعة على صفحات الصحف سيما فتاوي الطلاق التي لم تجعل ثمة شك فيه والتي منعت أموال الفقراء من التسرب إلى جيوب المرتزقين الذين يتخذون العلم متجرا فيفرضوا على حالفي الطلاق ما شاءت لهم أنفسهم مقابل فتواهم بعدم وقوع الطلاق فالفخر لنا معاشر المسلمين والشكر لله الذي أوجد لنا في شخصكم رجل العلم النزيه الذي لا يألوا جهدا في نشر الدين الإسلامي ابتغاء مرضاة الله، وإني إزاء هذا المبررات حفزني شعوري لأن أورد لفضيلتكم سؤالي الآن راجيا منكم الإفادة للمجموع. وإن تكرمتم بالجواب يكون منه نسخة ليد داعيكم في البريد ونسخة أخرى تتشرونها على الصحف لتعم فائدتها الجميع كأسلافها من فتاويكم المنشورة في المجلات والجرائد.

والسؤال هو (ما قولكم دام فضلكم في فئة منتشرة في طول البلاد وعرضها يسمون أنفسهم أهل الطريقة. أي دراويش. ويستعملون كجوق مكمل منه الطبول ونقر الدفوف والكاسات والأعلام وشعارهم في ذلك أن يستعملوها في كل مناسبة في الختان والعرس والمواسم والأعياد. وياليتهم يقفون عند هذا الحد فقد يستعملون ضرب الطبل يتهيأون له من المساء حتى إذا كان العشاء ترى ساحة المرسح غاصة بالفتيات والفتيان ويكونون بلا انتظام فيختلط يختلط الحابل بالنابل وتكثر النظرات الغير مشروعة والهمس والجعص والإشارة والبعص. ثم يأتون بشابين رشيقين مشهودين لهما بالامتياز في مراسح (روبين) فيمسك كل منهما كاسا ويتبارون في الرقص وكل منهما يعمل جهده لينال إعجاب الحاضرين من الفتيان والفتيات. وعند ذلك يسمع زغلطة النساء إعجابا بالفائز. هذا ما يحصل في القرى وأما ما يحصل في المواسم والأفراح فحدث عنها ولا حرج. كل هذه الاجتماعات وما ينجم عنها من خبائث ورذائل سببها ضرب الطبول. وبعد تمام الطابق يقوم جمع من الفتيان بذكر لا يعرف له معنى. منه (حيها الله) وما شاكل ذلك وإني إزاء هذه المبتدعات أحببت الاجتماع بأحد أبطال هذه الأعمال بقصد عظته وكان لي ذلك وبينت له ما يترتب على هذا الاجتماع من المحرمات فكان جوابه (إن هذا ما وجدنا عليه السلف الصالح وإنا على آثارهم مهتدون وإنا نجزم بجواز عملنا هذا وحله شرعا وإنه ليس ببدعة في الدين).

وعليه فإني رأيت أن أعرض الأمر على فضيلتكم وأن أسألكم هل هؤلاء القوم آثمون أو مثابون وإنهم إن أصروا على حل هذا العمل وما يترتب عليه من خبائث هل يصلون إلى درجة الكفر أم لا؟ نرجو الجواب ولكم الأجر والثواب.

١٩٣٤/٩/٢١

فأجبته بجواب مطول هذا ملخصه:-

غزة في ١٩٣٤/١٠/٢٠م

حضرة الفاضل الشيخ عبد الخالق أحمد الكواملة المحترم

أخذت تحريركم المؤرخ/ ٢١-٩-٣٤ وجوابه هو :- أن هذه الطرق إنما حدثت بعد المائتين من الهجرة أي بعد مدة طويلة من صدر الإسلام فهي لا شك من الأمور المحدثة المبتدعة التي لم تكن في زمن النبي (ص) ولا في زمن الصحابة والتابعين وأول ما نشأت هذه الطرق كانت لمقاصد حسنة وهي أن يواظب أصحابها على العبادة وتطهير النفس من أدران الرذائل وتحليها بالفضائل ثم بعد طول العهد دخلت فيها الأهواء وتباينت فيها الآراء وحدث فيها بدع كثيرة منها الطبول والأعلام والدفوف والكاسات الصنج والرقص والغناء في الذكر والتصفيق بالأيدي وتمايل الذاكرين بعضهم على بعض

وفيهم الأولاد المرد أرباب الجمال مع اللمس والغمز واختلاط النساء بالرجال وغير ذلك من أنواع المحرمات التي أصبحوا يتعبدون الله..كأنها من العبادات التي شرعها الله وكلف الناس بها. ومن ذلك أنهم يكررون لفظ (الله) مرارا كثيرة بصوت مرتفع مع أن الله تعالى يسمع نداءه من أول مرة ولا يحتاج إلى تكرار النداء ولا إلى رفع الصوت بالدعاء كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن كانوا يرفعون أصواتهم بالدعاء (يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا) فلو أن رجلا ناداك وأنت بحضرته بصوت مرتفع وكرر ذلك مرارا كأن قال لك محمد محمد محمد مائة مرة أو أقل أو أكثر أفلا تغضب منه وتوبخه على رفع صوته وتكرار ندائه لك وأنت أمامه. فما بالك بالله الذي يعلم السر وأخفى.

ومن ذلك قولهم في الذكر (آه) مكررة مع أنها إن كانت بقصر الهمزة فإنها لا تدل على شيء في اللغة العربية بل هي كلمة مهملة وإن كانت بمد الهمزة فإنها إنما تدل على التوجع والتألم وليست من أسماء الذوات فضلا من أن تكون اسما من أسماء الله الحسنى التي أمرنا أن ندعوه بها. ومنها ما يفعله أرباب الطرق في المواسم والأعياد أمام جمهور من الناس(ص١١٠)...إظهار الولاية والمعجزة من وضع السيف على بطن أحدهم وهو مستلقي على ظهره ثم مشى أخر منهم على ذلك السيف. وكذلك مشى أحدهم على الشوك وما أشبه ذلك من الألاعيب التي يموهون بها على البسطاء. ومنهم ما يزعمه أهل الطرق من أن الشريعة غير الحقيقية فإذا ارتكب أحدهم ذنبا فأنكر عليه منكر قالوا عن المذنب أنه من أهل الحقيقة فلا اعتراض عليه، وقالوا عن المنكر عليهم أن من أهل الشريعة فلا التفات إليه، كأنهم يعتقدون أن الله تعالى أنزل للناس دينين وأنه يعاملهم معاملتين. نعم إن في الشريعة ظاهرا وباطنا مما يعلو على إفهام العامة من دقائق العلم والحكم والمعارف التي لا يعرفها إلا الراسخون في العلم فهي باطن وحقيقة وما يكون معلوم لكل الناس ومفهوم لكل واحد فهو ظاهر وكلاهما شرع الله ودينه وليس في واحد منهما ما يخالف الشرع وينافي الدين. وبالجملة فإن هذه الأمور التي ذكرناها والتي ذكرتها حضرتك في تحريرك هذا من بدع أهل الطرق الموجودة الآن لا يجوز استعمالها أصلا ولا القول بجوازها وحلها أبدا لأنها من الأمور المبتدعة في الدين وقد قال النبي(ص) (من أحدث في ديننا ما ليس منه فهو رد) وفي رواية أخرى (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) وهؤلاء قد أحدثوا في الدين ما ليس منه وتعبدوا بما لم يأمر به الله ورسوله.

وأما قول أحد أبطالهم لك (إن عملنا هو هذا ما وجدنا عليه السلف الصالح وإنا على آثارهم مهتدون وإننا نجزم بجواز وحل عملنا هذا وإنه ليس بدعة في الدين) فهو قول باطل من وجوه:

(أولا) لأنه على فرض نقل هذه الأعمال عن السلف الصالح فإن هذا السلف الصالح ليس مشرعا وإنما المشرع هو الله ورسوله فقط وحيث لم يرد ذلك عن الله ورسوله فهو بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

(ثانيا) إن السلف الصالح لا شك أنه بريء من مثل هذه الأعمال التي تعملها أرباب الطرق في هذه الأيام ونسبتها إلى السلف الصالح إنما هو غلط وخطأ وزور وبهتان لما عرفت من أن هذه الطرق إنما نشأت بعد القرن الثاني من الهجرة فضلا عن هذه المبتدعات التي إنما حدثت فيما بعد من جهل أهل الطرق عند فساد حالهم واختلاف أهوائهم وأغراضهم.

(ثالثا) إن الله تعالى قد نهى عن التقليد بغير برهان ولا دليل قال تعالى لمثل هؤلاء المقلدين (قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) وقال أيضا (بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير) وقال أيضا (بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تندد على من قلدوا آباءهم وأجدادهم ومن قبلهم بمجرد كونهم قالوا شيئا أو فعلوه بدون تفكر في حسنه أو قبحه وبدون معرفة لبرهانه ودليله.

وأما سؤالك عن كون أرباب هذه الطرق الذين يعملون هذه الأعمال التي لم ترد في الدين (هل هم آثمون أو مثابون وهل إن أصروا على حل هذا العمل وما يترتب عليه من خبائث يصلون إلى درجة الكفر أم لا).

فالجواب عنهم أنهم آثمون قطعا إذا فعلوا ذلك على أنه من الدين وأنه عبادة لرب العالمين. وأما إذا فعلوه على أنه ليس من الدين ولا من العبادة بل لكونه عادة اعتادوا عليها فهو مكروه أو محرم حسب حكمه في الدين، وهذا عدا ما يترتب عليه من جراءة الناس فيما بعد، إلى اعتقاد أنه من الدين. وعلى كل حال فإنه لا يصل بهم إلى درجة الكفر ولو اعتقدوا حله لأنهم قد يكونون متأولين في ذلك. ومن فعل شيئا أو اعتقد حله بتأويل، أو شبهة دليل، فليس بكافر وإنما الكافر هو الذي أنكر ما علم من الدين بالضرورة كالصلاة والصوم أو اعتقد حل ما حرم في الدين بالنص كالزنا أو السرقة ونحو ذلك ولكن ما ذكرته من أعمال أرباب الطرق ليس منن هذا القبيل.

قال العارف بالله الشعراني رحمه الله تعالى (أجمع ثقاة المسلمين على معذرة المتأولين في غير أصول الدين كالتوحيد والصلاة والصوم ونحوها(ص١١٣)...علم من الدين بالضرورة. وإن أعظم ما بلي به المسلمون رمي بعضهم بالفسق والكفر بالتأويل) انتهى.

وقال ابن حزم (لا يكفر ولا يفسق مسلم يقول بقول قاله في اعتقاد أو فتيا إن اجتهد في ذلك فدان بما رأى أنه الحق) انتهى. وقال الأستاذ الشيخ محمد عبده (وقد عرف من قواعد وأصول الإسلام أنه إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مئة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد حمل على الإيمان ولا يجوز حمله على الكفر) انتهى. ومن هذا تعلم يا حضرة السائل أن أرباب الطرق لا يكفرون بما ذكرته من الأعمال لأنها لا تناقض ما علم من الدين بالضرورة وإن كانوا قد يأثمون في بعض ذلك كما قدمنا.

وسلامي عليكم ورحمة الله وبركاته.